العرب في عين العاصفة

لن أغير رأيي اليوم

سمير ساسي*

أنا مناضل نهضوي، عرفتُ القمع والسجن، وحين دخلتُ الصحافة بعد خروجي من المعتقل، كان ذلك في صحيفة حزبية يسارية. حين أصدرتُ روايتي «برج الرومي» عن تجربة التعذيب والسجن، بعد الثورة، أصدرتُها عند ناشر يساري. هذه هي تونس الحقيقية برأيي. هذا وجه تونس المتعدد والمتسامح الذي طُمس طويلاً. وهذه تونس، كما يجب أن تكون وتبقى دوماً.

منذ الجامعة، لم يكن عندي أي مانع في التفاعل مع الآخر المختلف عني فكرياً أو حزبياً، سواء من خلال خوض نضالات مشتركة، أم بالتعاطف مع هذا الآخر حين يكون ضحية لقمع النظام. ولن أغيِّر رأيي اليوم، بعد تولي «النهضة» الحكم. أعتقد أنّ حزباً مثل «النهضة» عانى طويلاً من الاستبداد والطغيان لا يمكن أن يمارس على خصومه ما عاناه بالأمس من مضايقات وإقصاء. نحن الآن انتقلنا إلى مرحلة من التعدد والديموقراطية التي تتيح لنا التعايش في إطار من الإخاء والاحترام المتبادل. وهذا يملي على الأقليات أن تحترم الأغلبية، وعلى الأغلبية أن تكفل حقوق الأقليات.

هناك فئة من النخب الثقافية التونسية لم تتخلص بعد من أسر الإيديولوجيا. وعلى هذه النخب أن تتحرر من هذه العقدة، لتكتشف أنها تستطيع أن تتعايش مع الآخر المختلف عنها، وأنّ موقعها وحريتها سيكونان مكفولين في إطار اللعبة الديموقراطية لأنّ حماية وترسيخ المكتسبات الديموقراطية التي حققتها الثورة هي السبيل لتحصين الحريات ضد التضييق أو التسلط، أيا كانت الجهة التي توجد في الحكم أو في المعارضة.

*** إعلامي وروائي تونسي من مساجين «النهضة السابقين». تعد روايته «برج الرومي» التي تناول فيها تجربته في المعتقل، العمل الأدبي الأكثر مبيعاً في تونس بعد الثورة.**

حملات التكفير بسبب برنامجه الثقافي الجريء «مغربنا في التنوير والتحرير» الذي يقدمه على قناة «نسمة»، فيقول إنّ «المضايقات والقمع والرقابة التي فُرضت على المثقفين قبل الثورة جعلتهم يبتكرون واقعاً متخيلاً لا يتطابق مع حقيقة الواقع المعاش. وعلى المثقف اليوم أن يتخلى عن النرجسية والنخبوية، وأن ينزل إلى المعمعة مثله مثل أي مناضل أو مواطن معني بدعم الحركات المطلبية التي تدافع عن الحريات والتعددية. من واجب المثقفين أن ينخرطوا في الحراك المجتمعي والسياسي، حتى لا يفسحوا المجال لأعداء الحرية كي يستغلوا أجواء الحريات التي تمخضت عنها الثورات الشعبية، لتسميم الربيع الديموقراطي برؤى شعبوية من شأنها أن تؤسس لأشكال جديدة من التسلط».

امتداداً لهذا التصور، يقول الحبيب بلهادي: «انخراط المثقفين في العمل السياسي يجب أن يأخذ الآن أبعاداً متعددة. هناك النضالات الحزبية والنقابية والمجتمعية التي كانت للنخب الثقافية التقدمية على الدوام أدوار طليعية فيها. وهناك أيضاً تحديات جديدة في مجال التنمية الثقافية التي يجب أن تضطلع بها النخب الثقافية. بعدما أسقطت الثورة المضايقات التي كانت مفروضة علينا في السابق من النظام الديكتاتوري، يجب علينا اليوم أن نوصل الثقافة الى كل فئات الشعب، وخصوصاً الفئات المحرومة في المناطق النائية التي كانت سماد الثورة الشعبية. يجب أن نناضل لكي يكون للمواطن البسيط في سيدي بوزيد أو قفصة أو غيرهما من مناطق الداخل المهشمة دور ثقافة ومسارح وصالات سينما. هذا المسعى لن يسهم فقط في دمقرطة العمل الثقافي، بل سيكون أداة تنموية تخدم أهداف التشغيل وتسهم في محو الفوارق بين المدن الكبرى والأرياف، وفك العزلة عن المناطق التي كانت منسية ومهمشة في ظل النظام السابق. كما أنّ هذا المسعى سيلعب دوراً بالغ الأهمية في بناء جسور التواصل والتكامل بين الثقافة والتربية. فالتصدي للمد الأصولي والشعبوي لا يتأتى فقط من النضال السياسي أو المطلبي المباشر الذي لا ينبغي إغفاله أو الانتقاص من أهميته، بالطبع، وخصوصاً في مرحلة مفصلية مثل التي نشهدها، لكنه يجب أن يندرج أيضاً ضمن معركة معرفية وتوعوية طويلة الأمد».

النوري بوزيد له رأي مغاير وأقل تفاؤلاً في ما يتعلق بدور المثقفين. يقول: «لا يجب أن نتحدث عن نخب ثقافية في المطلق، كما لو كانت النخب نسيجاً متجانساً. الانتخابات الأخيرة تمخضت عن خيانة قطاع هام من النخب السياسية اليسارية والعلمانية لمبادئها، من أجل حسابات سياسية ضيقة دفعت بها إلى التحالف مع «النهضة». لو أنّ تلك النخب تحالفت مع باقي قوى اليسار، لأصبحت «النهضة» أقلية في المجلس التأسيسي. لكن الشعبوية دفعتها إلى التحالف مع الإسلاميين، متوهمة أنها بذلك تقترب من الشعب». إلا أن صاحب «ريح السد» يعود ويستدرك، قائلاً: «أنا من أوائل من نادوا بأن تنخرط القوى التقدمية في الحراك الشعبي، لكن الاقتراب من الشعب لا يجب أن يكون على حساب القيم والمبادئ التي نناضل من أجلها، التي تتمثل في الدفاع عن حريات التعبير والرأي والمعتقد، وعن قيم المواطنة والمساواة والعلمانية».

يوافق توفيق الجبالي هذا الرأي، ويضيف: «نحن كفنانين ونخب ثقافية، يجب أن نقف دوماً على الضفة المقابلة للسلطة، أياً كانت هذه السلطة. يجب أن يكون دورنا مرتكزاً باستمرار على الدفاع عن الحريات والديموقراطية والحق في الاختلاف. أما السؤال: إلى أي مدى يستطيع الإبداع الفني والثقافي أن يكون مؤثراً في المجتمع؟ فهو سؤال إشكالي مطروح حتى على الدول المتقدمة ذات الخبرة الأطول والتجربة الأعمق في هذا المجال». ويتابع: «نحن اليوم ندافع عن وجودنا كفنانين ومثقفين، كما فعلنا دائماً خلال مختلف الفترات والحقب، الصعبة أو الأقل صعوبة التي مررنا بها. نحن منسجمون مع أنفسنا، وندافع اليوم عن الحريات، مثلما دافعنا عنها سابقاً حين تصدينا للتسلط والديكتاتورية قبل الثورة. ولعل هذا المنطلق المبدئي هو الذي جعل حماستنا للثورة قصيرة الأمد، إذ وجب علينا بسرعة أن نأخذ مسافة نقدية عن الأحداث، لنحاول فهم واستيعاب المستجدات والتأقلم معها».

> **خانت النخب السياسية اليسارية والعلمانية مبادئها من أجل حسابات سياسية ضيقة**

أما عن خصوصية الدور المنوط بالنخب الثقافية في ظل الأنظمة والحكومات ذات التوجه الإسلامي التي أفرزتها ثورات «الربيع العربي»، فيقول الصحافي والكاتب عبد الحليم المسعودي: «من حيث المبدأ، يُفترض بعمل المثقف أن يبقى ذاته، قبل الثورة أو بعدها، لأنّه عمل بعيد المدى يراهن على التراكم. لكن المرحلة الحالية لها خصوصيتها، فهي تقتضي من المثقفين مزيداً من التيقظ والحذر، لأنّ التهديدات التي تحدق بالحريات تملي عليهم واجب التفاعل مع كل القوى الحيّة في المجتمع من أجل الدفاع عن هذه الحريات». ويضيف: «بلداننا تحتاج اليوم إلى المثقف العضوي القادر على التفاعل مع الواقع الجديد، والانخراط في الحركات المطلبية التي تدافع عن التعدد والحرية والتسامح. وهذا لا يتحقق إلا إذا استطاعت النخب الثقافية أن تعيد النظر جذرياً في آليات تفكيرها وعملها، وتخرج من عزلتها، ومن الواقع الافتراضي الذي تعيشه، ونظرتها المتخيلة إلى المجتمع التي أفرزتها عهود التسلط السابقة التي حاصرت المثقفين وهمّشتهم، وحدّت كثيراً من قدرتهم على التفاعل مع مجتمعاتهم وناسهم. إذ كيف يمكن أن يكون للمثقف صوت مسموع ودور مؤثر، إذا لم يستمع إلى هموم شعبه، ولم يفهم كيف يفكر هذا الشعب وما هي انشغالاته؟».

ويذهب الحبيب بلهادي أبعد منذ ذلك، قائلاً: «على النخب الثقافية أن تعمل على نشر القيم الديموقراطية وترسيخها في الوعي الجماعي. وذلك لا يتأتى سوى من خلال نهضة فكرية ومواطنية شاملة. على المثقفين أن ينزلوا إلى المعمعة، وألا يستسلموا لمحاولات التهميش والإقصاء التي تريد أن تلغي أي دور مؤثر للنخب الثقافية من المشهد السياسي والاجتماعي. هذا النوع من الاقصاء الذي يطاول المثقفين لا يشكل خطراً على حرية التعبير والإبداع والفكر فحسب، بل أيضاً على مستقبل الديموقراطية في البلاد. محاولات إقصاء المثقفين وأبلستهم تندرج ضمن منحى شعبوي يهدّد بتقويض مبادئ التحرر والكرامة التي قامت عليها الثورات الشعبية العربية. وهذا الأمر يفضي إلى ولادة أشكال جديدة من التسلط والفاشية السياسية والفكرية».